

من قراءتنا لعدّة نماذج صحفية وأدبية وفكرية، يظهر لنا ان المنطق الفني يسيطر سيطرة كبيرة. وحتى في كتب الاثارة البوليسية، أو التحقيق في أنشطة المخابرات والجيش، يسيطر على الخطاب الصهيوني هذا المنطق. ويكاد يشكّل جاذبية خاصة، وهو الخاصة الاساسية الجاذبة أحياناً في ما يسمّى كتب «الاثارة» التي يقرأها الانسان العادي في محطة قطار، أو في طائرة، أو في مطعم.

هذا المنطق هو المنطق الواقعي، بمعنى تجسيد الأمكنة والأزمنة بالأحداث البصرية، وليس بالتحدّث عنها؛ أو فلنقل انه التبشير غير المباشر. ان أفضل تجسيد فني لصورة انسان ليس بالتحدّث عنه بل بتركه يتحرّك ويتحدّث. وأفضل تجسيد فني لفكرة هو حشد ما توجي به من عناصر واقعية، أو ايجاد معادل من سلسلة أحداث ومشاهد تبعث، حين يقرأها القارئ، الانفعال والافكار المصاحبة لها.

نشرت صحيفة «التايمز» اللندنية خطاباً لكاتب صهيوني تحدّث فيه عن ابنه المجنّد في جنوب لبنان. ويصلح الطابع الفني لهذا الخطاب مثلاً على ما نذهب اليه^(٣٧). فمنذ بداية هذا الخطاب وحتى نهايته، لا يقول لنا الكاتب مباشرة أي عاطفة، أو انفعال، يسيطر عليه، بل يترك لسلسلة من المشاهد البصرية ان تصلنا بعواطفه وانفعالاته الكامنة.

انه يبدأ خطابه بكيفية اضطراب حياته وتغيّر علاقته بالاجهزة الصديقة، عادة، للانسان: الهاتف والتلفاز وجرس الباب. لقد أصبحت كل هذه الاجهزة معادية للانسان.

حدث هذا التغيير حين أكمل ابنه تدريبه العسكري، وحين تحوّل أصدقاؤه المجنّدون معه تحوّلات غريبة، فتحلّصوا من الخدمة العسكرية في الجبهة، والنتيجة انهم وصلوا الى كافة الوظائف المريحة في الألوية القريبة من بيوتهم: «وظل ابني فقط، وحليب أمه لم يكد يجفّ على شفّتيه، بحذاءيه العسكريين غير الملائمين؛ ظل المقاتل الوحيد في الحي، وهو موجود الآن في مكان ما من لبنان...»^(٣٨).

ثمّ وصف هذا الأب تصرفاته حين اتصل بابنه هاتفياً، وحين شاهد الجنود في التلفاز، محاولاً التعرّف على واحد من وحدة ابنه، أو حين سمع عن الهجمات من الاذاعة، أو حين انتشرت الاشاعات بين أهالي الذين يخدمون في لبنان.

وبعد هذه السلسلة من المشاهد المعبرة عن القلق والعاطفة الأبوية، لم ينس هذا الأب ان يناقش ما يسمع. فما سمعه بعد عملية فدائية ضد الجنود الاسرائيليين هو ثرثرة عن «الفعل الشنيع» وعن «الحرب ضد الارهاب». وخاطب نفسه بصيغة الآخر الغائب، وسأل: «عمّا يتحدثون؟ المسلمون يحاربون من أجل أرضهم بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها وحسب التقاليد السائدة هناك. الشخص الوحيد الذي لا ينبغي ان يكون هناك منذ البداية، هو ابني: الابن الذي حوّلوه الى محرّر للبنان يغيّر نظام الخليقة، ويجعل الكتاب حكماً وقيم نظاماً جديداً، وهو الآن مكروه ممقوت، معزول ومذمور، وهدف حي كل مهمته الوطنية ان يحمي نفسه...»^(٣٩).

نلاحظ على هذا الخطاب ما يلي: فهو، أولاً، خطاب متدرّج، بمعنى انه لا يقول دفعة واحدة ولا مباشرة ما يريد قوله، لأن ما يريد ايصاله ليس فكرة، أو حكمة، أو تعليقاً، بل تجربة. تجربة تنطق عن نفسها بكامل الموضوعية. وكأنّ للخطاب موضوعية؛ وكأنه قائم بنفسه بغض النظر عن شخصية من كتبه. فهو وجود موضوعي يفرض نفسه على القارئ كما تفرض وجودها الشجرة. انها موجودة فحسب. ويقدمّ الينا الخطاب نفسه كسلسلة من المشاهد التي تدرج وتكمل بعضها بعضاً.